

وطنتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين إرسال نواب عنهم حتى يشتركوا ومناشر
أخوانهم العثمانيين في الغنم والعزم فليس من الإنصاف أن يبقى جلهم بدعوى قلة حصه
على الحياد وهو في وسط البلاد ويحسب جزءاً متمماً من أجزاء السلطنة العثمانية كيف
تقلب الحال وتعددت المظاهر والأشكال.

غابات لبنان

٤

ليس في لبنان أرض تبلغ مساحتها مائة كيلو متر مربع بل غاية ما فيه من الأراضي
منحدرات ومنعرجات وأودية ضيقة ومسائل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم
وأشجارهم وأكثر الأراضي مما يصلح للشجر أكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال
الأرض في الأكثر. وليس في الأيدي نص قديم يشير إلى أصناف زراعة لبنان منذ عرف
التاريخ غير ما نقلناه في نبذة سألقة عن مؤلفي العرب من أن فيه أصناف الفواكه
والزروع وأكثرها مما ينبت بنفسه وهو كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع. وإذا كانت طبيعة
أرض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لا تناسبها أرضه ضعيفة
فيه أو تكاد تكون معدومة.

ولكن لم تخل أرض لبنان في زمان من أزمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز
والنوز والتفاح والصنوبر والتوت من الأشجار المثمرة والزنان والسنديان والسرور والأرز
من الأشجار الغير مثمرة. وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الأرز
لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولأن من خشبه بني قصر داود هيكل سليمان
والهيكل الثاني الذي جدد في أيام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة

القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم. وقالوا أنه ثبت أن ملوك الآشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الأرز وأن المصريين أدخلوا من خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وأن الاسكندر المقدوني وضع من خشب الأرز في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين في سورية أدخلوا خشب الأرز في بناء دورهم.

وكل هذه الأخشاب قطعت من لبنان أو من الجبال المجاورة له وكانت تحمل في الغالب إلى طرابلس وصيدا وصور حيث كانت دور الصناعات وقد أنشأ بعض ملوك الإسلام أساطيل من خشب الأرز وقالوا أن بيروت (١) كانت دار صناعة دمشق (ترساتها أو ورشها) وبها عمر معاوية المراكب وجهاز فيها الجيش إلى قبرص ومعهم أم حرام واسمها العيصاء وقيل أنه عمر من الأرز ألفاً وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهاز أسطولاً أضخم من الأرز نفسه وتبعه غيره من ملوك الإسلام في اختيار الأخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الأرز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من قارة إلى قارة ومن مهنكة إلى أخرى وهو عطر الرائحة إذا وضع في النار ويحسن في المثل إذا مسسته بيده ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء لا تعبت به الأرضة ولا يفعل فيه السوس ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله في أبنيتهم وقصورهم وهياكلهم وقنائينهم ونصبهم.

والغالب أن الحكومة السالفة (١) القديمة في لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستعملها لخزينتها وهي السرو والعرعر والأرز والصنوبر وتسح بقطع غيرها واحتطابه أو غرس غره محله. وقد بدأ النقص في هذه الأشجار ولا سيما الأرز منذ خمسة قرون لأن

البنانيين احتاجوا إلى الاحتطاب وأخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصاً وقد جرت عادة بعض حكام لبنان إذا غضبوا على أحد أن يقطعوا أشجاره ويخربوا داره وإلى اليوم لا يزال من الأمثال السائرة في الجبل الله يقطع رزقه أي ما يملك من شجر والله يخرب رزقه أي بيته.

مثال ذلك أن الأمير أحمد المعني طرد المشايخ الحماديين المتأولة لما كثر بغهم في كسروان ففروا إلى بلاد بعلبك فأحرق قراهم في القرن الحادي عشر وقطع أشجارهم وقد رسم مرة بيدمر (٢) نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من أمراء الغرب في لبنان وكان في دمشق أن يركب على خيل البريد ويتوجه إلى قرية عين زحنا من شوف

صيداء ليكشف عما فيها من أشجار التوت النافع لعمل الشباب فلم يجده موافقاً وربما أحب عدم تصديق أهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذاك العهد اجتهد أهل الشوف في قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته. قلنا ومثل ذلك ما نشاهد في أيامنا من أن بعض أهل القرى البعيدة عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع أشجارهم فراراً من ظلم منتزعي الأعشار واشتطاطهم في تقاضي العشور عليها أضعافاً مضاعفة ولم يبرح شجر الأرز موجوداً في عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه إليها نحو ٢٥٠ شجرة يسوقها الأهل وأخرى فوق الباروك غير منخدة وضعيفة النسو لكثرة الأمطار والثلوج والعواصف في تلك الأرجاء وثالثة فوق قرية عين زحلتا وكان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضها أيام حادثة سنة ستين لتجدد بخشبه بعض بيوت المنكوبين ورابعة بين افقا والعاقورة في جرد جبيل من بلاد كسروان

وخامسة بين قرية تنورين وبشري صغيرة الشجر وعدد شجيراتهما نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ متراً عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الأرز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقليل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منها نحو خمسة عشر متراً وارتفاع أطولها خمسة وعشرون متراً وقدروا عمرها بثلاثة آلاف سنة. ولا أثر الآن في سورية لشجر الأرز إلا في أعالي سمر بيلاض الضية (١) في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الأرز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سمر ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسى عند أهله تنوب.

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الأرز أو أي كان من شجر الاحتطاب في الأماكن الخالية ولا سيما في القسم والقفن لما أتت عشرات من السنين إلا وقد زادت ثروة الجبل زيادة محدودة وكان مع طول الزمن لأبن لبنان من أشجاره مود آخر غير التوت والزيتون مثلاً لأن شجر الأرز لا يوجد في الغالب إلا في مثل هذه لعنو من الجبل بل من جبال سورية التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها.

وإذا زاد عدد الغابات في سورية زيادة كبرى وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتي القدس والزور بكثير الغابات في الأماكن الخالية ولا سيما في الخال التي يعرف أنها كانت غابات غيباء نافعة يتحول مناخ سورية وتكثر فيها الأمطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليومة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذى بذلك العرب الرحالة في باديتهم كما يتضرر ابن المعنورة بهم ويصبح منهم بين نكبين سماوية بقنة الأمطار وأرضية بسطو ابن البادية على ما بقي لأبن القرى من رزق.

وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض على كل لبناني أن يغرس عشر شجرات من أصناف الشجر عنه تقتدي بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا يأتي عنها جيل إلا وتصبح سورية غنية بغاباتها كغنى سويسرا أو أكثر والأشجار في بلادنا أكثر نمواً مما هي في أوروبا لما عرفت من اعتدال الفصول ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر فغرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة أن كثر اليوم هطول الأمطار فيها على طريقة منظمة وسيكثر خيرها كنما زادت أشجارها وعسانا تقتدي في سورية بهذا المثال.

الهجرة من لبنان

٥

منذ أمن السكان في لبنان على أرزاقهم وانقطعت شأفة أرباب المقاطعات الذين طاموا اشتطوا في مطالبهم وبطلت أو كادت السنطة الإفرادية الذوقية وقنت الأوبئة والزلازل التي كانت تحصد العمران والسكان حصداً كالزلازل الذي عاود لبنان مرات سنة ١٧٥٩م وخرب القرى وأهلك الناس والطاعون الذي حدث سنة ١٧٨٩م وعم لبنان كنه واستمر الموتان ثلاثين سنة (١) - منذ خفت العوارض الطبيعية والأرضية أخذ كل فرد يحسن من حاله فتمت النفوس باستتباب أسباب الراحة وأخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون أبناء الجبل على المنازع الدينية ويلقنهم شيئاً من اللغات الإفرنجية والعنوم العصرية كما أن الموارنة ما زالت لهم علائق مع الكرسي البابوي في رومية يختلف إليه أحبارهم منذ قرون وربما انزع الجبل من هذه الصنة والعائد.

ثم أن طبيعة الجبل تقتضي التحسين والتظيم والمسيحيون على الجبلنة يميلون إلى الرفاهية ويقدرّون طعم الحياة قدرها ولم يكذب يدخل القرن الثالث عشر للهجرة في دور العدم ويطنح القرن الرابع عشر حتى دخل جبل لبنان في طور جديد فكثرت طرق عجلاته حتى أصبح ليده منها الآن نحو ألف كيلو متر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة الاخكمة وقيء سبل التقل على المصطافين في ربوعه وأكثر هذه الطرق في قضاء المتن لأنه ظهر لبنان ونقطته الوسطى ومقصد المصطافين من البيروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم. وفيه الآن سبعون كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها خمسون من طريق بيروت ودمشق وعشرون من ترامواي شمالي لبنان.

وفي هذا الجبل ٢٥ (١) مدرسة داخلية كبرى وصغرى و١٤ مدرسة اكليركية و٨ مستشفيات و٢٠٦ من الحراج والغابات و١٤٧ من معامل الحرير و٨١٩٧ من اللوايب وبنعت حاصلاته من الفياح (الشرايق) سنة ١٩٠٦ - ٢٠٢٧٠٣٠ أوقية ومن الزيت ٢٥٤٨٨ أقة وثمن الحرير الذي يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك في السنة وكثر سكانه حتى عدلوا أن في كل كيلومتر مربع ٦١ نفساً ولا يفوق الجبل في ذلك غير ولاية الأستانة وجزيرة سيسام (ساموس). وسكانه الآن زهاء أربعمئة وثلاثون ألف نسمة منهم ٢٥٠ ألفاً من الموارنة و١٦٠ ألفاً من الروم و٣٦ ألفاً من الكاثوليك و٥٥ ألفاً من الدروز و٣٣ ألفاً من المسلمين (سنة وشيعة) و ١٥٠٠ من البرتستانت والباقون أرمن وإسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه خمسمئة من أهل الوبر يعيشون في مضاربهم خارج القرى وأكثرهم فقراء يستوكفون الأكف وقد أحصى غلينوس السوري في تاريخ الصنيين عدد الموارنة في عصره فكانوا أربعين ألفاً وما زال عددهم يربو على

عدد وفياتهم وأن هاجر كثيرون بعد ذلك إلى قبرص ورودرس والقدس ومالطة ولا يعد أن تكون اللغة العربية انتشرت في جزيرة مالطة بواسطتهم.

ولا يسعنا وقد وصنا من بحثنا في شؤون الجبل إلى هذا الحد إلا أن نرسل جنة في شغف اللبنانيين بالهجرة إلى أميركا وغيرها من البلاد التي توهم ابن سورية أن المال فيها منقى عنى الشوارع لا يحتاج إلا لمن يمد يده ليتناوله مع أولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف ما يصرفون من الوقت والقوة في بلاد المهجر عنى طول السنة وحسبوا ما صرفوه في ذهابهم وإيابهم وقدروا عدد من هنكوا منهم لرأوا أن المعدل واحد والفرق قليل لا يساوي هذا النصب.

والذي ظهر من قرائن الأحوال أن ابن لبنان كان أول فلاح سوري هاجر إلى أميركا أو جراً سائر السوريين عنى الهجرة مجذوباً بما اشتهر عن القارة الأميركية من الغنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبعدها ولأن ابن لبنان أكثر أهل جبال سورية تعلماً ونوراً وأوفرهم نشاطاً ومضاءً وشماً وادلالاً بل أن مجموع القارين والكاين فيه أوفر من مجموع القارئين والكاينين في مجموع مدن الشام.

وأول من دخل أميركا (١) من السوريين الخوري الياس بن القسيس حنا الموصني الكنداني من سنة ١٦٦٨-١٦٨٣. وأول من دخل أميركا الشمالية في القرن الماضي الخوري فلبيانوس الكفوري سافر إليها سنة ١٨٤٨ وأخذ معه ناصيف الشلودي وأول من دخل الجنوبية المطران باسيلوس حجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الإحسان وأول من دخل أميركا الشمالية للتجارة أبحار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف إلى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا إلى بلادهم بثروة وافرة

فاقتفى أثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالى لبنان وامتد في كل سورية ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد واستراليا وجزر البحر المحيط بل وفي افريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها.

وقدر بعضهم أن ثلث المهاجرين يمكن أميركا وثنثهم يرجع إلى وطنه والثلث الآخر يموت. ونظن أن الثلث الأخير مبالغ فيه وإن كان عدد الهالكين في المهجر غير قليل. وأحصي (١) عدد السوريين المهاجرين إلى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين ألفاً منهم ستون ألفاً في الولايات المتحدة وخمسون ألفاً في جمهوريات أميركا الجنوبية وخمسة وعشرون ألفاً في أميركا الوسطى وعشرة آلاف في أستراليا وبعض الجزائر والباقيون في افريقية والهند والفلبين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون ألفاً نصفهم ذكور ونصفهم إناث وربما كان الذكور أكثر.

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان بإقدامهم وذكائهم المعهود فزلوا في دار الهجرة بلاداً تحتاج إلى أيدي عاملة ونفوس لا تعرف التعب فأنشأوا يعنون ويذخرون ويقترنون على أنفسهم في النفقة على خلاف عادة معظم المهاجرين إلى أميركا من أهل أوربا مثلاً فأب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير صحته بمئات النيرات فكان أول همه أن يعمر له داراً قوراء بالحجر النحيت والقرميد على المثال الذي رآه في بيوت المهجر.

وكثر تقنيد الناس بعضهم لبعض ومنهم من اشترى له أرضاً في بلده وطفق الآخر بما جناه من ذاك الرأس المال القليل أما الأفراد الذين اغتروا فعدت ثروهم بالآلاف فقد استوطنوا البلاد التي هاجروها جرياً على المثل العامي في المطرح الذي فيه ترزق الصق وهم إن

كانت تحدثهم أنفسهم بالرجوع لا يهنأ لهم بل متى عادوا إذ يتجلى لهم الفرق الكبير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو وبونس أيرس وسان باولو مثلاً وبين عشقوت وبسكتا وعمشيت وعرنة ومعرونة أما أولادهم فينطعون بطابع البلاد التي ولدوا فيها وأكثرهم لا يعلمون اللغة العربية ولذلك لا يرجي البتة أن يعودوا إلى موطن آبائهم وهذا القسم ممن خسروا البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم أن بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم على جانب من الأخلاق والمعرفة لم يعدوا إلى الطرق السافلة في تحصيل الثروة.

نفعت الهجرة لبنان وأضرته وعندى أن المضار أكثر من المنافع إذ لا يظهر إلى العيان في الغالب إلا الحسن. فقد يذهب ألف مهاجر مثلاً إلى بند كذا ولا ينجح منهم إلا واحد أو اثنان فيأخذ الناس يتحدثون في أمرهما وينسون أولئك المئات الذين يعملون أربع عشرة ساعة كل يوم في أشق الأعمال ولا يكادون بعد مرور سنين يوفون أجره الطريق التي استنفوها من أحد المرابين في بلدهم أو باعوا في الحصول عليها أرضاً لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هنكوا بالأمراض وغرها وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها.

فإن من نظر في الأمور نظراً سطحياً وشاهد تلك البيوت البديعة في قراه ومزارعه التي عبرت بمال أتى به المهاجرون من غير أرض لبنان وسمع بأن فلاناً أصبح يملك كذا وكذا من النيرات وأن بند كذا يدخل إليه كل شهر من تحاويل أميركا ما يقدر بكذا من الذهب - من شاهد ذلك وسمعه لا يعتم أن تعرفه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد أن الحال إذا دام على هذا المنوال وأموال أميركا لتسرب إلى بلادنا نصبح بعد بضع سنين

أغنى من الأمير كان ونقل شطراً عظيماً مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية ليست السعادة بكثرة المال. السعادة شيء غير ما يتوهمه من همهم إنشاء البيوت وتزيينها وفي باطنها الشقاء والحسرة. قال لي عجوز في صليبا وقد سألتها أين رجالكم: ذهبوا إلى أميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التي عثروا لها لسرح فيها الفيران عادوا ليجعوا كمية أكبر من المال لأن ما جمعوه لم يكفهم لإتمام هذه الدور على ما يحبون وفرشها ونقشها ثم إن حالة البلاد لم تعجبهم بعد أن شاهدوا مشاهد أميركا. وقول هذه العجوز الذي أحزني مغزاه ولا تزال الأذن تردد صداه قد سمعت مثله من كثيرين من أهل لبنان رجال ونساء.

أي حسرة أعظم من أن تتوقع أم في كل أسبوع قدوم ابنها وقد تمضي الشهور ولا تتناول كتاباً منه أو زوجة تنتظر منذ سنين هي وأولادها وهو لا يكاد يبعث لهم بنفقتهم فتضطر تلك المرأة المسكينة أن تعمل لينها ونهارها لتطعم أولادها من كدها وما هي بمفلحة. وأي بنوى أكبر من أن تدخل قرية وتجدها فيها عشرات من البنات العوانس ينتظرن عروساً لأن شبان الضيعة هاجروا وأكثرهم لا يريد أن يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة أميركية وزهد في أسرته وقرينته لأنه تمعن بزعمه ولا يثق به أن يتزوج إلا من متدنة. ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يدرك سر تعدد الزوجات إلا في مثل هذه الحال ويسجل بأن أقل سيات الهجرة انقطاع الأهليين عن التماس ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر أسباب الراحة فيه.

وإن دعوى من يدعون أن لبنان لولا الهجرة لأصبح خراباً مردودة من وجوه أحدها أنهم يعتقدون أن تلك الأموال التي دخلت لبنان وهي تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هي غنى

لبنان وما الثروة في الحقيقة إلا العسل ليس إلا. فقد رأينا اسبانيا على عهد شارلكان تسرب المال إلى صناديقها بالبدر والسبائك من أقطار المعنور لأن هذا الملك كان يعتقد أن كثرة النقود والذهب في بلاد كف وحده في غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنن حتى أمت اسبانيا أفقر بلاد أوربا لأن أهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والأخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرفاعة من شأنهم.

إن انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين إلى نزول أميركا وافريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على أمل العودة إلى مساقط رؤوسهم متى امتلأت أكياسهم وجيوبهم وعبايهم قد حال دون تعهد أرضهم واستثمار صناعاتهم. ففي لبنان من الخيرات الطبيعية ما يكفي أهله إذا زادوا ضعف ما هم الآن ومهما بنغت العناية اليوم بزراعته لا يزال فيه فضل للعنل وميدان واسع للجد. ولا يشعر بذلك إلا أرباب الأملاك. مثال ذلك أن كلنة الفلاحة كانت تساوي منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشاً فأصبحت اليوم تساوي ستين على حين أن غلات التوت لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة أيدي العاملين وارتفاع أسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش في البلاد ولأن المهاجر اللبناني الذي كان فلاحاً حراثاً إلى عشرين أو ثلاثين جداً من أجداده إذا هاجر وقضى في هجرته ثلاث سنين ثم آب بلاده تكبر نفسه فلا يعود يتنازل إل معاناة الزراعة بل يفضل أن يعيش كما يعيش تجار أميركا وأرباب الأملاك في بلادنا وهو لا يملك رأس مال يكفيه سنة واحدة إذا ظل عطلاً عن العنل.

في أمثال العامة أنا أمير وأنت أمير فمن يسوق الحنجر حكمة لطيفة نافعة تصدق على اللبناني المهاجر فإذا أحب كل فرد من المهاجرين أن يقلد الأعيان في عيشه ورفاهيته فمن

يبقى لتعهد التوت والزيتون وغرس الصنوبر والأرز والسنديان والزان وحفر الأقنية والأحواض وتجهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الأقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وأنواع الزينة.

ولقد قال الاقتصاديون أن جملة ما ساعد ألمانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية أنك تجد في رجالها أنواع العاملين ولا يستكف كل عامل من عمله بل ولا يريد أن يعرف إلا به فالألمان أشبه بجيش منظم فيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم وكل واحد منصرف إلى عمله لا تحدثه نفسه أن يقلد رفيقه أو يعتدي عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه ما أمكنه الحال ولو جرى أهل بلادنا على هذا المثال لأصبحنا بعد جيل أمة راقية حقيقية ولما رأينا الصغير يشكو لأنه يريد تقليد الكبر وأسبابه لا تساعد.

نحن لا نحاري أولئك الذين يدعون أن لبنان كان خراباً لولا الهجرة لأمر أقنوها أن البلاد السورية واسعة وأهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون أن يتولوا الأقاليم القليلة السكان المحتاجة إلى العناية ويستعمروها فإن فتشوا ذات اليبين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعبك والبقاع ومرجعيون وصيداء تتأخم جنبهم وتحصرهم فيه فإن لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام وبلاد حلب مثلاً ما يكفي لإغناء مئات الألوف من الناس فنو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدهم لأصبحت بعد سنين جنات زاهرة وأقل ما في ذلك من منافع أن هذه البلاد منهم على أيام قليلة يستطيعون في استعمارها أن يقضوا معظم أيام السنة في جلهم.

وقد كتب قائم مقام سروج من أعمال حلب منذ مدة في جريدة المقتبس يقول أن خمسين قرية في قضائه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش فلو اشتراها بعض أرباب الأموال من اللبنانيين وأنفقوا عليها النفقات التي ترقى زراعتها وغرسوا فيها الأشجار وأقاموا البيوت لما أتت ثلاثون سنة إلا وهذا القضاء وحده من أعمار البقاع السورية فما بالك بما في غيره من الأقضية والألوية والولايات العثمانية من الخيرات.

لا نوافق القائلين بالاغتناء بسرعة فإن ما يأتي بدون عناء كبير قد يذهب في الأكثر كما جاء. وأنا لنؤثر أن يوجه اللبنانيون ولا سيما في عهد الدستور السعيد وجوههم قل البلاد الداخلية من سورية والعراق والأناضول ففيها متسع لهم وفيها لهم مغامم كثيرة ولو صبروا على جنبها لكان لهم ولأبنائهم وأحفادهم منها مال خالد ومالك لا يكاد يبلى.

وفي لبنان من الصناعات القديمة ما يرقى لو سعوا تحسينه كعمل الأقمشة والتجارة والحدادة (١) وغيرها وله مورد آخر لنربح ينتفع منه الآن أكثر من سائر جبال سورية ونعني به موسم المصطافين فإن لبنان من سورية ومصر كسويسرا من أوروبا وأميركا يقصده الكثيرون كل سنة التماساً للصحة والراحة فلو عني اللبناني أكثر مما يعنون براحة من يتولون عنهم لأتاهم الصيف في كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة فقد حسب بعضهم عدد المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر ألف نسمة أكثرهم من المصريين فلو فرضنا أن الواحد ينفق عشر ليرات لكان المبلغ لا يقل عن مئة وخمسين ألف ليرة فما الحال لو زاد هذا العدد ونحن نرى أن سويسرا وإيطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة ما لا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة وإذا زادت عناية حكومة لبنان وأهلها بالمصطافين في قسم لبنان لا يعتمد أن يجلب إليه أناساً من المصطافين من أهل

أوروبا نفسها خصوصاً إذا رأى السياح أن النفقة في الجبل أقل مما في جبال الألب وأنها لا تبلغ مع أجور النقل في البحر والبر والمبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف. وبعد فإننا لا نفتأ نكر القول بأن من الأنفع لأبن لبنان أن يوجه بعد الآن وجهته إلى الداخلية ليعتاش ويرتاش وأنه إذا استفاد المهاجرون منا إلى أميركا من حيث ارتقاؤهم في اقتباس بعض أصول التمدن في المنبس والمأكل والسكن فإن الأنفع له اليوم أن يسعر بلاده وهي تحتاج إلى أضعاف أضعافهم. وسوف يعلنون أن هذه النصيحة صادرة عن إخلاص لا يراد منها إلا نفع لبنان خاصة وسورية عامة فإن يقاسيه اللبناني من ألم الغربية والمهانة في الأحياء واحتقار الغربي له مهما بلغ من مكانته جدير بأن لا ينسب بلاده والعيش بين أهله وجيرته. وقدر أحد العارفين منذ ثلاث سنين أن ما حمده اللبنانيون المهاجرون إلى لبنان يبلغ خمسمائة ألف ليرة أي على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا أن هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والأدبية.

قصة العربية الأخيرة

ساحتي الأخوان (١)

سألتوني سعدت بكم أوطانكم أن أحدثكم بطرف من تاريخ قصة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرة وما منكم إلا من استفيد منه وأتشرف بالأخذ عنه. أنتم من أهل الفضة الفاضلة في وطنكم يتوقع منكم أن تنيروا آفاق جهله بأنوار معارفكم وأن تعبروا أكناف معمله ومجاهله بما ثقفتموه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من عنم صحيح وآداب رافعة. فإني لي وأنا نازل بينكم متعلماً لا معلماً أن أفوه في حضرتكم